(٣٣) أحمد بن خضرويه[١]

ذكر أبي حامد أحمد بن خضرويه البلخي رحمة الله عليه:

كان رحمه الله من كبار مشايخ خراسان رحمهم الله، كاملاً في الطريقة، مَشهورًا بالفتوة، مَقبولاً لدى فِرَقِ الأمة وأهل الرواية، مشهودًا له بالولاية.

وله تصانيفُ، وكان له ألفُ مُريدٍ، كلٌّ منهم يمشي على الماءِ وفي الهواء.

وكان في أول الأمر مُريدًا لحاتم الأصم.

وصحب أبا تراب النَّخْشبي، وزار أبا حفص، وقدم إلى بِسطام لزيارةِ أبي يزيد البِسطامي وقد مرَّ في ذكر أبي يزيد[٢] رحمه الله.

وقال أبو حفص: ما رأيتُ أحدًا أكبرَ هِمَّةً ولا أصدقَ حالاً من أحمد بن خضرويه.

وامرأتُهُ فاطمة كانت آيةً في علم الطريقة، وكانت بنتَ أميرِ البلخ، فتابت إلى الله، وبعثت إلى أحمد: أن خاطبني من أبي، فلم يقبلْ أحمد رحمه الله، ثم بعثَتْ إليه ثانيًا، وقالت: ظنّي فيك أحسنُ من هذا، فإنّي حسبتُكَ دالاً إلى الطريق لا صادًّا عنه! ثم بعث أحمدُ إلى أبيها، واستخطبها منه، فأجابه أبوها، وزوّجها منه تبرُّكًا، وتركتْ هي أشغالَ الدُّنيا، واطمأنَّتْ معه إلى أن قصد زيارة سلطان العارفين، وذهبت فاطمةُ معه، فلمَّا وصلتْ إلى أبي يزيد رفعَتِ

---

(١) طبقات الصوفية ١٠٣، حلية الأولياء ١٠/ ٤٢، تاريخ بغداد ٤/ ١٣٧، الرسالة القشيرية ٦٣، مناقب الأبرار ٢٨٩، صفة الصفوة ٤/ ١٦٣، المختار من مناقب الأخيار ١/ ٢٩٩، سير أعلام النبلاء ١١/ ٤٨٧، الوافي بالوفيات ٦/ ٣٧٣، طبقات الأولياء ٣٧، نفحات الأنس ٨٢، النجوم الزاهرة ٢/ ٣٠٣، الكواكب الدرية ١/ ٥٣٢، طبقات الشعراني ١/ ٨٢.

(٢) انظر الصفحة ١٩٠.

الحجاب، وكشفَتْ عن وجهها، وشرعَتْ في الحديث مع أبي يزيد، فتغيَّر أحمدُ عن جرأتها[١]، وغارَ عليها، ثم قال لها: يا فاطمة، وما كانت تلك الجرأةُ مع أبي يزيد؟ قالت: إنك محرمٌ لطبيعتي، وهو لطريقتي، فيك أصلُ إليه[٢]، وبه إلى الله تعالى.

ومعنى هذا الكلام: أنك محتاجٌ إليَّ، وهو مُستغنٍ عنّي.

وكان لها انبساطٌ وجرأة مع أبي يزيد، حتى أنَّ أبا يزيد رحمه الله قال لها: يا فاطمة، ما هذا الحنّاءُ على يديك؟ فقالت: يا أبا يزيد، كان لي انبساطٌ معك ما لم تَكنْ مُطّلعًا على حنَّائي، ولم تكن تنظرُ إليَّ، فالآن صحبتي معك حرامٌ.

وقد مرَّ في ذكر أبي يزيد[٣] أنه قال: دعوت اللهَ حتى سوّى في نظري بين الجنِّ والمرأة، حتى لا يتوهَّمنَّ في شأنه شيئًا لا يليق به.

ثم ارتحلَ أحمدُ مع فاطمة إلى نيسابور، وسكنَ هناك، وطاب معه أهلُ نيسابور.

واتَّفقَ أن جاء يحيى بن معاذ رحمه الله إلى نيسابور قاصدًا بلخَ، فقال أحمد لامرأتِهِ فاطمةَ: أريدُ أن أتَّخذَ دعوةً ليحيى. فقالت: إن أردتَ ذلك فاذبحِ الأغنامَ والبقر والحمير، وألقها من باب دارك إلى بعض الطريق. قال أحمد: أما الأغنام والبقر[٤] فأعلمُ، فما بالُ الحمير؟ قالت: تدعو فتىً إلى دارك، فلا أقلَّ من أن يكونَ لكلابِ المحلّةِ نصيبٌ. فكانت فتوَّتُها إلى هذه الحالة والمرتبة، حتى قال أبو يزيد: من أرادَ أن ينظرَ إلى رجلٍ في لباس الرجال[٥] فلينظر إلى فاطمة.

نقل عن أحمد بن خضرويه رحمه الله أنه قال: قهرتُ النفسَ مدَّةً مديدةً إلى

---

(١) في (ب): فتغير أحمد عن جوابها.

(٢) في (ب): فيك أصل إليك.

(٣) انظر الصفحة ٢٠٠.

(٤) في (ب): فاذبح الأغنام والبقر، فأعلم فما بال.

(٥) كذا في الأصل، ولعل الصواب: إلى رجلٍ في لباس النساء.

أن عزم جماعةٌ السفرَ إلى الغزو[١]، فظهرتْ في نفسي رغبةٌ عظيمة إليه، وقصدتُ على المشي معهم، فقلت: ألبتَّة إن النفسَ لا ترغبُ في الطاعة، ولا يكون لها نشاطٌ فيها، ولا ميلٌ إليها، فليس هذا إلاّ مكرٌ وحيلة من النفس[٢]، ثم تفكّرتُ فيه، فظننتُ أنّي لا أُفطرُ في سفري هذا، وأَصومُ دائمًا، فوافقتني النَّفسُ في ذلك، فقلت: يحتملُ أن يكونَ مكرُها لأجل أنّي أُتعبُها بالصلاة في الليل، فقصدتْ هذا السفر لتنام بالليل وتستريح، فشرطتُ معها أن لا أَتركَها تنام بالليل قطعًا، وأُسهرُها إلى الصباح، فرضيتِ النفس بهذا أيضًا، قلت: يمكن أنّها عجزتْ عن الخلوةِ والعزلة، فتُريدُ الاختلاطَ في السفر مع الخلق والاستئناس بهم، فشرطتُ معها ألاّ أختلط بالسفر مع[٣] أحدٍ، فرضيت بهذا أيضًا، ثم إني عجزتُ في شأنها، وفي معرفةِ مَكرِها وتسويلها، حتى رجوتُ الله تعالى، وتضرَّعتُ لديه ليُلهمني مكرها، فحينئذٍ اعترفتِ النفسُ وقالت: إنك تقتلني بخلافِ مُرادي كلَّ يوم كم مرة، وأُريد أن أمشي إلى الغزو، لعلّي أُقتلُ وأخلصُ، وأيضًا يشتهرُ في الدُّنيا أنَّ أحمدَ بن خضرويه استُشهد في الغزو[٤]. قلت: إلهي، خلقتَ نفسًا تُنافقُ في الحياة وبعدها أيضًا، لا تُؤمنُ في هذه الدنيا ولا في الآخرة، حسبتُ أنّها تدلّني على طاعةٍ، فإنها لا تطلبُ إلاّ الرياءَ ثم الخلاصَ من المُكابدةِ والمشقَّة، فبعدَ ذلك بالغتُ في مُخالفتها بأَضعافِ ما كان قبل.

نقل أنه قال: كنتُ في البادية أَقطعُها إلى مكّةَ على التوكُّلِ، فانكسرتْ برجلي شوكةُ أُمِّ غيلان، فما أَخرجتُها لئلا يبطلَ توكُّلي، ووصلت إلى مكَّةَ شرّفها الله تعالى على العرجِ، وقضيت المناسكَ بعونِ الله تعالى، ورجعتُ، وفي دوام الطريق كان القيحُ يَخرجُ منها، وأكون معها في مشقّةٍ، فاطَّلعَ بعضُ

(١) في (أ) و(ب): في الغزاء.
(٢) في (أ): فليس هذا الأمر وسيلة من النفس.
(٣) في (ب): الاختلاط في السفر مع أحدٍ، فرضيت.
(٤) في (أ) و(ب): في الغزاء.

الناس، وأَخرجَ الشوكةَ من رجلي، وبقيتْ رجلي مقروحةً حتى وصلتُ إلى بِسطام، قال لي أبو يزيد مُبتسمًا حين رآني قال: ماذا فعلتَ بالقيدِ الذي كان على رجلك؟ قلت: تركتُ اختياري إلى اختياره.

نقل أن سارقًا دخلَ بيته، ودارَ في أَطرافه، ولم يجدْ شيئًا، فأراد أن يخرجَ، فقال له أحمد: يا فتى، خذِ الدلوَ، واستقِ الماءَ من البئر، وتوضَّأْ، واشتغلْ بالصلاة، وقف هنا، فإن رزقني الله تعالى شيئًا أعطيك[1] لئلا تخرجَ من عندنا محرومًا. ففعل السارق ما أَمَرَ به الشيخ، ففي الغدِ جاء رجلٌ وأتى بمئة دينار، ووضعه بين يدي الشيخ، فقال الشيخُ للسارق: خذ هذا؛ فإنّه جزاءٌ لصلاتك ليلةً واحدةً. فظهرتْ للسارقِ حالةٌ عجيبة، ووقعتْ رجفةٌ على أعضائه، وشرعَ في البكاء، وقال: أخطأت الطريق؛ لأنّي عملتُ لله تعالى ليلةً واحدةً فأكرمني بهذا. فتابَ ورجعَ إلى الله تعالى ببركة حُسْنِ خُلق أحمد.

نقل عنه أنه قال: أضافَ رجلٌ فقير غنيًّا، وقدَّمَ إليه خبزًا يابسًا، فلمّا عادَ الفتى إلى بيته أرسل للفقير صُرَّةً، فلم يقبلْها الفقير، وقال: هذا جزاءُ الفقير[2]، كشفَ لديه سرَّ فقده.

نقل أن رجلاً من الأكابر رأى في المنام أحمدَ جالسًا على سريرٍ، وجمعٌ من الملائكة يجرُّون السريرَ بسلاسلَ من الذهب، ويمشون به في الهواء، فقال: يا شيخ، إلى أين؟ قال: إلى زيارة صديق. فقال: مع هذا القدرِ والجلالة أَنت تَزوره؟ قال: نعم، إن لم أمضِ إليه هو يجيء إليَّ زائرًا، ويكون له درجة الزائرين لا لنا.

نقل أنه نزل في زاويةٍ نوبةً مع ثيابٍ خَلَقَةٍ، فارغًا عن رسمِ أهل التصوف في الظاهر، ولكن هو مَشغولٌ بوظائف، وأصحابُ الزاوية يُنكرونه، ويضمرون عنه، ويَنظرون إليه بالتحقير، وقالوا لشيخهم: ليس هذا الرجلُ من أهل

---

(١) في (ب): رزقني الله أعط لئلا.

(٢) في (ب): وقال: ليست هذه جزاء الفقير.

زاويتنا، ولا يُناسبنا. إلى أن وقعَ الدلو يومًا في البئر، فجاء أحمد إلى رأس البئر، وقال للشيخ: اقرأ الفاتحة ليطلعَ الدلوُ من البئر. فتوقَّفَ الشيخُ في هذا الشأن، فقال أحمد: يا شيخ، ائذنْ في أن أقرأَ. فأذِنَ له الشيخُ، فقرأ أحمدُ الفاتحة، وطلعَ الدَّلو على رأس البئر، فتحيَّر ذلك الشيخُ عن هذا، وقال: من أنت؟ فإنَّ بيدرَ حياتي صار تبنًا في جنب حياتك[١]. فقال: قلْ لأصحابك لا يَنظروا إلى المسافرين بعين الحقارة، ٶها أنا سافرت.

نقل أنَّ رجلاً فقيرًا جاءَ إليه ضيفًا، وأشعلَ الشيخُ لإعزازه[٢] إحدى وسبعين شمعةً، فقال الفقير: لا يُعجبني هذا، فإنَّ التكلّفَ لا يليقُ بالتصوُّف. فقال أحمد رحمه الله: قم إلى الشموع، وأطفِئ الشمعةَ التي ليست لله تعالى. فقام الضيف، وسعى واجتهد، ولم يقدرْ على إطفاءِ شيءٍ منها، فتعجَّبَ الفقيرُ عن هذا الأمر، فلمّا أصبحَ قال أحمد: تعالَ معي حتى ترى أَعجبَ من ذلك. فذهب به إلى كنيسةٍ للنصارى، فالتقى هناك بعظيمِ النصارى، ففرحَ بقدومِ أحمد، وأجلسه ورحّبه، وقدَّمَ إليهما خِوانًا عليه طعامٌ، والتمسَ منه الأكل، فقال أحمد: لا يأكلُ الصديقُ مع العدو. فاضطرَّ العظيمُ لأجلِ إكرامِ الضيف، ولم يقدرْ على المُخالفة، فأعزم على الإسلام، وقال: يا شيخ، اعرضْ عليَّ الإيمان. فعرضَ، وآمنَ هو ومعه سبعون من خُدَّامه ومُلازميه، ثم رأى الشيخُ[٣] في الليلة في المنام، كأنّه تعالى وتقدّس يقول له: يا أحمد، إنك قد أشعلتَ لأجلنا إحدى وسبعين شمعة، فنحن لأجلك نوّرنا قلبَ أَحدٍ وسبعين[٤] رجلاً بنور الإيمان، فهذا بذاك.

من كلامه أنه قال: كرامةُ الفقير في ثلاثة: التواضع، وحُسن الأدب، والسخاوة.

---

(١) في (أ): فإنَّ بذر حياتي صار نبتًا.
(٢) في (ب): ضيفًا لي أشكل الشيخ.
(٣) في (ب): ثم رجع إلى الشيخ في الليلة.
(٤) كذا في (ب)، وفي (أ): إحدى وسبعين.

و: من أراد أن يكون اللهُ تعالى معه فليلازمِ الصدق، قال الله تعالى: إن الله مع الصادقين[١].

و: الصبرُ زادُ المضطرّين، والرّضا درجةُ العارفين.

حقيقةُ المعرفة أن تُحبَّهُ بالقلبِ[٢]، وتذكره باللسان، وتقطعَ همَّتَكَ وقصدَك عن غيره.

و: أقربُ الناسِ إلى الله تعالى أَحسنُهم خُلقًا.

وسئل عنه عن المحبة، فقال: لا يعظمُ في قلبك الكونان ـ أي الدنيا والآخرة ـ لأنَّ قلبَكَ يكونُ مملوءًا عن ذكر الله تعالى، وأن لا تشتهي شيئًا سوى الخدمة والطاعة له، إذ ليس أَوفقُ[٣] للمحبِّ شيئًا من الخدمة.

و: القلبُ موضعٌ إذا امتلأَ من الحقِّ ـ أي من محبّته ومعرفته والتفكّرِ في آلائه وصفاته ـ فاضَتْ أنوارُهُ على الجوارح، وإنِ امتلأَ من الباطلِ ظهرتْ ظُلماتُهُ على الجوارح.

و: لا نومَ أَثقلُ من الغفلة، ولا رقَّ أَملكُ من الشهوة.

و: لولا ثقلُ الغفلة لما ظفرتْ بك الشهوةُ.

تمام العبودية في الحرية.

أقول: قال الإمام أبو القاسم[٤] رحمه الله: الحرية أن لا يكونَ العبدُ تحت رقِّ المخلوقات، ولا يجري عليه سلطان المكونات.

وقال الأستاذُ أبو علي الدقاق رحمه الله: من دخلَ الدُّنيا وهو حرٌّ عنها

---

(١) كذا الأصلين، ولا يوجد هذا في كتاب الله، ولعلّه أراد قوله تعالى في سورة التوبة، الآية (١١٩): ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَكُونُواْ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴾ والخبر في حلية الأولياء ١٠/ ٤٢، وبه: فإن الله مع الصادقين.

(٢) في (ب): أن تحبّ بالقلب.

(٣) في (ب): ليس أوقف.

(٤) قول المحشّي كلّه في الرسالة القشيرية ٣٢٨ وما بعدها. (باب الحرية).

ارتحلَ إلى الآخرة وهو حرٌّ عنها. وما أحسن ما أنشد[١]:

ما بقي في الإنسِ حرٌّ لا ولا في الجنِّ حرُّ
قد مضى حرُّ الفريقَيْـ ـنِ فحلوُ العيشِ مرُّ

وقال أبو العباس السياري: لو صحَّتِ الصلاةُ بغيرِ القرآن لصحَّتْ بهذا البيت:

أتمنّى على الزَّمانِ مُحالاً أن ترى مُقلتاي طَلعةَ حرٍّ[٢]

والله أعلم.

وقال: الطريقُ بيِّنٌ، والحقُّ واضحٌ غيرُ خفي، ثم لا يمنعُ من السلوك إلاّ العمى.

وسئل عنه: أيُّ الأعمالِ أفضل؟ قال: حفظُ السرِّ عن الالتفات إلى غيرِ الله تعالى.

قيل: سمعَ يومًا هذه الآية: ﴿فَفِرُّوٓاْ إِلَى ٱللَّهِ﴾ [الذاريات: ٥٠] قال: نعم التعليم! إذ لا مفرَّ إلاّ لله تعالى.

استوصى رجلٌ، فقال: أمتْ نفسك ليُحييها اللهُ تعالى[٣].

أقول: وممّا نُقل: قال محمد بن حامد: كنتُ جالسًا عند أحمد بن خضرويه وهو في النزعِ، وكان قد أتى عليه خمسٌ وتسعون سنة، فسأله بعض أصحابه عن مسألةٍ، فدمعتْ عيناه، وقال: يا بُنيَّ، بابٌ كنتُ أدقُّه منذ خمسٍ وتسعين سنةً، هو ذا يُفتح لي الساعةَ، ولا أدري بالسعادة أم بالشقاوة، أنَّى لي أوان الجواب[٤]. والله أعلم.

نقل أنه كان عليه سبعُ مئة دينار دينًا قد فرَّقَها على المساكين، وغرماؤه

---

(١) في الرسالة القشيرية ٣٣٠ البيتان لمنصور الفقيه.
(٢) البيت لأبي الحسن علي بن محمد البديهي. انظر يتيمة الدهر ٣/ ٤٠٠.
(٣) الخبر ليس في (ب).
(٤) الرسالة القشيرية ٦٤.

عنده، فنظرَ إليهم وقال: اللهم إنك جعلتَ الرُّهونَ وثيقةً لأرباب[١] الأموال، وأنت تأخذُ عنهم وثيقتَهم ـ يعني روحه ـ فأدِّ عنهم. فدقَّ البابَ داقٌّ وقال: أين غرماءُ الشيخ؟ وقضى عنه ديونه، ثم خرجَتْ روحه، رحمه الله، وماتَ سنة أربعين ومئتين.

اللهم يا كريم، نسألُكَ مُستشفعين إليك بأوليائك رضوان الله عليهم أجمعين أن تقضي عنَّا جميعَ ديوننا، وأَنْ لا تَكلنا إلى أنفسنا طرفةَ عينٍ[٢]، وأن تكونَ لنا حافظًا وناصرًا ومُعينًا على كلِّ خيرٍ يا أرحمَ الراحمين، وصلَّ اللهُ على سيِّدنا محمدٍ وآله وصحبه أجمعين.

* * *

(١) في (ب): الرهون في وثيقةٍ لأرباب.

(٢) في (ب): إلى أنفسنا، ولا إلى هوى أنفسنا طرفة.